أمثلة من الترجمة

Jörg Baberowski

Räume der Gewalt

S. Fischer Verlag, Frankfurt 2015

ISBN 978–3–1000–4818–9

صفحات **13–26**

ورج بابروفسكي
أماكن العنف

ترجمة: علا عادل

© 2016 Litrix.de

ما العنف ، وكيف يمكننا فهمه؟

" زحفت حرب الغوريلا صوب الجنوب عبر الأمطار دائمة الانهمار في اتجاه العاصمة." هذا هو ما تذكره الكاتب الأمريكي دينيس جونسون الذي كان شاهدًا على الحرب الأهلية الليبيرية عام 1990 وأردف قائلاً: "في الواقع لم يتوقع أحد أنها ستصل إلى هناك. إلا أن هذا هو ما حدث فجأة في نهاية شهر يونيو / حزيران. فقد احتل أتباع تايلور المطار. واقترب جونسون من الجانب الآخر وغزا المدينة وعزل الرئيس في مقره كما فعل الشيء نفسه مع جزء كبير من الجيش في منطقة بوسط المدينة تضم بعض المباني السكنية. (...) بدأ الناس يغادرون المدينة. ورحل أغلب الدبلوماسيين البريطانيين. كما رحل جميع الدبلوماسيين الفرنسيين وبقيت نصف دستة من العاملين بوزارة الخارجية الأمريكية ونصبت قوات البحرية منصات أسلحة آلية حول مبنى السفارة.انقطع التيار الكهربائي في مونروفيا. ولم يعد الماء متوفرًا. وأصبح هناك نقص في السلع الغذائية.أفرزت الحرب الأهلية وحشية مرعبة. وعندما ظهر رجال تايلور وهم يرتدون ثياب الزفاف وأغطية الرأس أثناء الاستحمام ، تلك الأشياء التي أخذوها على سبيل الغنائم وحاربوا مع الجيش حول مقر الرئيس، انتشر مُناخ من الرعب العبثى . كانت أغطية الرأس البلاسيكية مفيدة للوقاية من المطر.أما فائدة ملابس الزفاف فلم يعرفها أحد. وفي المقابل تجول جنود جونسون وهم يضعون على رؤوسهم طواقى أبناء منطقة الباسك وخصلات شعر أعدها لهم أحد صانعي الشعر المستعار مسرعين بسيارات مرسيدس في الشوارع وهم يفجرون المنطقة بوحشية من حولهم.تجاسر القاطنون بالقرب من السفارة البريطانية في النهاية على أن يطلبوا من ثوار جونسون ألا يتخلصوا من جثث ضحاياهم على شاطئهم – بسبب الرائحة العفنة. بالطبع قال الثوار أنهم سيفعلون ذلك. في ليبيريا تمتد الشواطىء على مسافة كيلو مترات.(....) تحرك معظم اللاجئين سيرًا على الأقدام متجهين أولاً عبر منطقة نفوذ تايلور ثم نحو الغرب متخذين أفضل الطرق السريعة في ليبيريا باتجاه سيراليون، تيار من البشر يشبه تدافع الناس بعد انتهاء مباراة كرة قدم. في العادة لا يستغرق اجتياز هذه المسافة سيرًا على الأقدام أكثر من خمسة أيام في منطقة مستوية، غير أن الأمور ازدادت صعوبة بشدة، لأن ثوار تايلور- هؤلاء الصبية المتعطشون للدماء من أبناء قبائل جاوومانو الذين تتراوح أعمارهم في الأغلب بين الحادية عشر والخامسة عشر والمدججون بأسلحة طراز AK-47 وأسلحة آلية طراز إم 16- هؤلاء قد بيّتوا نية الكشف عن أبناء قبائل كران ومانديجو جميعهم ، وكذلك جميع أفراد جيش الرئيس والحكومة السابقة بين الجموع ثم قتلهم. على بعد حوالي ستين كيلو مترًا، تحديدًا في مدينة كلاى وصل اللاجئون إلى أول نقطة تفتيش. حينئذ كان

© 2016 Litrix.de

المتمردون يسألون: هل تشمون ذلك؟ وكانوا يقصدون رائحة العفن التي سممت الهواء. وقالوا أيضًا: " نتمنى أن
تكونوا تعرفون من أنتم، وإلا سيستقر بكم الحال هناك من حيث تأتى رائحة العفن." من
لم يتحدث باللكنة السليمة، ومن بدا عليه الثراء أو بدا أنه يتغذى جيدًا، كانوا يطلقون عليه الرصاص أو يقطعون رأسه أو يسكبون عليه البنزين ويشعلون به النيران. كما تعرض البعض للموت غرقًا في نهر مانو. أما اللاجئون الذين وصلوا إلى سيراليون فقد حكوا عن نقاط تفتيش تحيط بها السياج التي ثبتوا على أسياخها المدببة رؤوسًا مقطوعة.(....) لم يكن الاغتصاب والسلب والقتل هنا أكثر قسوة منه في أماكن الحروب الأهلية الأخرى، غيرأن بشاعة هذه الحرب ارتبطت بقوى ظلام معينة من خلال خيوط الشعوذة، مما زادها بأمور غير مبررة وأكثر قبحًا.

قبل ذلك بحوالي أربعة عقود، في فبراير من عام 1944، دوّن المُجند ويلى بيتر ريس الذي قضى إجازته في موطنه مدينة دويسبورج، ما شهده هو وزملاؤه قبل ذلك بأسابيع قليلة على الجبهة الشرقية، فكتب يقول: " بسرعة شديدة دارت سيمفونية الحرب الكبرى، وعصفت بعيدة المدى. كنا نسمع أصوات نيران قوات المشاة الروسية، والصدى القادم من الهضاب خلف مقابر الأعداء. كانت القذائف تسقط على الأراضي الخلفية، فيهدر الدوي، ويخيم في صوت زئير أولي ويمتد صداه مثل أصوات جوقة الأشباح. ثم تنطلق أولى الضربات في الغابة الصغيرة. وتنفجر قذائف المشاة لتدوي دويًا أجوفا وعنيفا، كانت طلقات النيران الصادرة عن المدرعات والأسلحة الآلية المثبتة على المدرعات تهدر قريبًا منا وتدوي بصوت رنان عند الانفجار. وسرعان ما تنفجر ذخيرة قاذفات مدافع الهون. بينما بسطت الأسلحة الآلية شبكتها القاتلة. ظلت انطلاقات كشافات الضباب الروسية تنقر تجاهنا، حيث كانت أصوات الرنين التي تصم الآذان وأصوات الأنين، والصفير والنحيب والصراخ تتوالى دون انقطاع، حتى تحولت إلى إعصار غرق في رعد متواصل بلا نهاية.

لم نعد قادرين على التمييز بين طلقات البنادق وضربات القذائف. كانت تلك نيران حامية. جلسنا في الخندق وقد ارتدينا ملابسنا واستعددنا بأسلحتنا. لم يكن هناك ما يحمينا سوى طبقتين من الكمرات الخشبية وأكوام التراب، الا أننا شعرنا بالتحرر من الشلل والانتظار الخانق. فقد بدأت المعركة، ولم يكن الاشتباك ليزداد سوءًا عن تلك البداية. ظل الخندق يهتز ويرتج. كنا نتطلع بهدوء على وطيس الحرب، وعلى النيران والكتل الأرضية المتطايرة والدخان. تصاعدت أتربة سوداء عاليًا لتسقط مجتمعة أمامنا. كما ذرت الرياح أبخرة بنية شاحبة وصفراء وسوداء ورمادية تصاعدت من دخان البارود.كانت الرائحة نفاذة حتى أنها بلغت رئتنا وأحرقت أعيننا. ومثلما بدأ

القصف الهادر فجأة انتهى فجأة وانتقل مرة أخرى إلى الأراضى الخلفية. اهترأت أسلاك الهواتف ولم يتجاسر أحد جنود المراسلة على الخروج. ولكننا كنا نعرف: أن الموجة الأولى من الروس قد اجتاحت الخنادق الكائنة أمامنا الآن. أسرعنا صوب مدافع الهاون وأحضرنا أسلحتنا الآلية وجهزناها. ورأيناهم وهم قادمين: يرتدون ثياب التمويه البيضاء ويشكلون مجموعات وصفوفا، لتنطلق نيران الدفاع.رأيناهم يسقطون ويتعثرون ويفرون. مرت ساعة. الموجه الثانية أيضًا اندحرت أمام نيران الأسلحة الآلية الألمانية، وقذائف قوات المشاة ومنصات الصواريخ. ثم حل الغسق. امتدت أمامنا جثث الموتى، فيما راح الجرحى يزحفون للخلف. حملنا جرحانا إلى الطبيب. ساد الصمت بشكل مخيف، لم يقطعه سوى دوي خلفه من حين لآخر أشبه بصدى ضوضاء النهار. بيد أن غابة الأساطير الصغيرة تبدلت. إذ لم يعد الجليد أبيض اللون: فقد غطته قشرة سوداء من وحل البارود، بعد أن امتزجت عن آخرها بالغبار، والشظايا، والتراب، مما جعل الأساس فاتح اللون يلمع مع بداية حلول المساء مثل الأشباح. بدت الغابة صغيرة كما لو كانت أشجارها اجتثت، فقد استلقت الأشجار المقتلعة في أكوام، واصطفت حفرة القنابل إلى جانب الأخرى، وكانت القنابل قد كسحت في طريقها الأغصان المتجمدة (....) لقد وقع جمال الغابة وحياتها ضحية الحرب، شأنهما شأن الجرحى والقتلى المنتشرين بها. غير أننا نحن الناجيين كنا نحب الخطر، الذي كان يدرأ عنا الانتظار القاتل.في حرب الآلات أثبتت الحياة نفسها بقوة أكبر من خلال الرغبة الفارقة في الوجود. لقد قادتنا الحرب نحو مجال خلاب، وبعض من كانت قلوبهم مسالمة، شعروا بحنين غامض إلى كل ما هو مروع في الاحتمال والفعل. لقد استيقظ الإنسان البدائي داخلنا. وحلت الغريزة محل الفكر والشعور واحتوتنا حيوية متسامية.

وبعد عام، أى يوم 15 أبريل 1945، وهو يوم مشمس من أيام فصل الربيع، وصل جنود المدرعات البريطانيون إلى مخيم الاعتقال في بيرجن بيلزن. وقبلها بأيام قليلة كان ضباط الجيش البريطانى قد اتفقوا مع ممثلى قوات الدفاع على تسليم سلمى للمعسكر والمنطقة المحيطة به. وكان الاتفاق يفيد بأن يخضع المعسكر للقيادة البريطانية، بينما تبقى مسألة حراسة المعتقلين في يد قوة الدفاع وفرق الحماية، نظرًا لتفشى وباء التيفود في المعسكر. ومن ثم بات واضحًا أن الضباط البريطانين كانوا يعتبرون معسكر الاعتقال بمثابه مكان متحضر لتنفيذ العقوبات. لأنهم لم يكونوا ليوافقوا على مثل هذه الاتفاقية لو عرفوا ما ينتظرهم. وما أن وطأت أقدام أول جندى بريطانى أرض المعسكر حتى ظهرت أمامهم الصورة المفزعة. "لا وصف" و"لا تصوير فوتوغرافي" يمكن أن ينقل شكل للمكان، هكذا قال أحد ضباط قبيلة السانتى وهو

© 2016 Litrix.de

يتذكر ما حدث. روائح كريهة منفرة، وجبال من الجثث كانت ملقاة في المكان وفي العنابر، وكائنات هزيلة ونحيلة ترتدى ملابس السجن تزحف على الأرض لتبحث عن طعام صالح للأكل.

بدا أن جوزيف كرامر، آمر المعسكر لم يدرك على الإطلاق مدى صدمة المحررين. فهو لم يحاول الفرار عندما اقتربت النهاية. حتى أنه بدلاً من ذلك استقبل الجنود عند بوابة الدخول وقادهم في أرجاء المعسكر "بلا حياء" ، ودون أدنى انفعال، وفق ما ذكره أحد الضباط البريطانيين. ولم يستطع أحد أن يفهم، لماذا لم يهرب كرامر بسبب كل الفظائع التي ارتكبها بل أن حراس قوات الحماية لم يدركوا بدورهم أن وقت القتل والضرب قد ولى. وعندما تزاحم المساجين نحو مطبخ المعسكر أوسعهم المساجين المحظيون المعروفون بمسمى كابوضربًا. أردى رجال قوات الحماية العديد من الأشخاص رميًا بالرصاص، رغم وجود الجنود البريطانين في المعسكر. وعندما سأل أحد الضباط كرامر عن سبب مواصلة إطلاق النيران والضرب، رد عليه قائلاً أنه من المستحيل الحفاظ على النظام في المعسكر دون استخدام القوة مع المساجين. وعندما أمروه بإحضار ملفات من مكتبه، جلس على مكتبه وقد وضع أحد ساقيه باسترخاء على مسند الكرسى. وكان لا يزال يعتبر نفسه قائد المعسكر، وأخذ يتحدث عن إدارة الجحيم، كما لو كان ذلك من أكثر بديهيات العالم. منذ سنوات وهو قائد، أولاً في معسكر أوشفيتس، ثم في بيرجن بيلزن والآن يقولون أن كل شيء قد انتهى؟ عندما أجبره الضباط البريطانيون على حمل سجين مصاب على كتفيه ونقله إلى المستشفي العسكرى، ثم وضعوا الأصفاد في يديه بعد ذلك، شعر بالاضطراب. إذ لم يستطع أن يصدق أنه هو من كان يحرص على إرساء النظام دائماً، يصبح الآن قيد الاعتقال.

سر العنف

يغير العنف كل شيء ومن يتعرض له يصبح شخصًا آخر. فمعايشة العنف شأنها شأن رحلة إلى عالم جديد، حيث تسود قواعد أخرى ويعيش أشخاص آخرون. في هذا العالم تحيد معايير ما هو طبيعى، ما يمكن أن يعتبره الناس بديهيًا، يبدو في ضوء العنف غريبا بطريقة نادرة، وما هو غير معتاد يصبح من شئون الحياة اليومية. ما أن تطأ قدمك مواطن العنف حتى تعرف أنه لم يعد أى شيء كما كان. وقد كتب الجندى ويلى ريس يقول أنه لم يستطع مطلقًا نسيان وحشية العنف، التي كان شاهدًا عليها. فقد نظر إلى قاع الروح الإنسانية ولمس فظائع الحرب بكل خلجاته. وكان قد أتى إلى روسيا من مملكة السلام والرخاء، ليغادر البلاد ثانية بوصفه موصومًا.

ريس، المهووس بالكتب مرهف الحس، أصبح شخصًا آخر، منذ أن رأى الجحيم، وقتل نساء وأطفالاً، وأمطر جنود الأعداء بوابل رصاص من سلاحه الآلي. لقد قتل بشكل آلي ودون

© 2016 Litrix.de

أدنى تعاطف، كي يتمكن من النجاة من الحرب وكي ينقذ حياته. ولكنه باح لدفتر مذكراته مرة قائلاً: " إلا أنني لم أجد الهدوء ثانية أبدًا، ولم أجد طريق العودة لذاتي مرة أخرى. إذ ظلت الذكريات تطاردني مثل اللعنات. حتى أنني كنت أعايش فظائع حرب الشتاء مراراً وتكراراً، واسمع دوى القذائف وصراخ الجرحى، ورأيت الجنود يتدافعون ويتهاوون ويلقون حتفهم ورأيت نفسي مثل شخص غريب في قدرى على هامش بلد المجهول".

كان هذا أيضًا لسان حال الجنود البريطانين الذين لم يتمكنوا مطلقًا من نسيان ما رأوه في بيرجن بيلزن، وحاولوا أن يفهموا ما دفع رجال مثل جوزيف كرامر لارتكاب فظائع لا يمكن تبريرها بأية حال من الأحوال. لم يستطع هؤلاء الذين رأوا الحرب ولمسوا الموت فهم ذلك. ربما كان بالإمكان فهم تحول آمر معسكر اعتقال أوشفينتس- بيركناو، وبيرجن بيلزن ورئيس لبيبريا مجرم سادي أو وحش. ولكنهم لم ينطبق عليهم مطلقًا ما يعتبر في العادة مبررا لنشأة العنف. إذ لم يكن كل من تايلور وكرامر مرضى نفسيين، لم يكن أي منهما عرضة في الماضي لاضطهاد أو من ضحايا العنف. ولم يحدث ذات مرة أن أبدى أي منهما اهتمامًا ببرامج سياسية وأيدولوجيات. ورغم ذلك فقد اعتبرا تلك الأمور التي رأى فيها الجنود أنفسهم خرقًا للمدنية والتحضر أمورًا طبيعية. كيف استطاع كرامر وتايلور اللذان أمرا بقتل عشرات الآلاف من البشر، أن يعتقدا أنهما تعرضا للظلم حين تم إلقاء القبض عليهما، وأنهما يجب أن يُخلى سبيلهما بمجرد استدراك الخطأ؟ ألم يدركا ما كان يدور حولهما؟ تبدو الحالة من الوهلة الأولى واضحة. فالجناة لم يروا ما رآه الآخرون، ولم يعتبروا هذا غير معتاد، لاسيما ضرب البشر ورميهم بالرصاص وإلقاء جثامينهم مثل القُمام. ولكن أنّى لنا أن نفهم أن هذين الرجلين لم يشعرا بأي شيء، أما نحن فقد وقفنا مشدوهين بمجرد أن سمعنا عن أفعالهم وجرائمهم.

نحن نعتبر الحب والحاجة للإشباع الجنسي بمثابة البديهيات، نعتبرهما جزء من المكونات الإنسانية الأساسية التي لا تبدو في حاجة إلى تفسير، بينما يعتبر العنف بمثابة الشطط الذي لا مكان له في حياتنا. لماذا؟ يمكننا أن نسهل الأمور على أنفسنا ونقول: لأن العنف يسبب الألم والخوف، على الأقل لدى هؤلاء الذي يتعين عليهم الخضوع له، ولأن متعة العنف لا يتم إشباعها إلا من خلال معاناة الآخرين وعذابهم. ولكن ذلك لا ينم سوى عن نصف الحقيقة بشأن الاضطراب الذي تسببه أعمال العنف لدى الأشخاص الذين يعيشون في سلام.

فنحن نشعر بالبلبلة والاضطراب عند مواجهة أفعال بشعة لا تحدث في العادة في محيطنا، لأننا نعيش في مجتمع مسالم، يعتبر الجريمة والقتل أمورًا استثنائية وليست القاعدة. ونحن نركن إلى الاعتقاد بأننا لن نصير ضحية للعنف، لأننا نعرف أن سلطة الدولة تفرض قيودًا على المجرمين

وأن الصراعات لا تُحسم بموت المغلوبين على أمرهم. أي أننا نثق للغاية في المؤسسات وقواعدها غير المرئية، لدرجة أننا نعتبر أنه من المسلمات ألا نتعرض للقتل عندما نغادر منازلنا في الصباح.

ولكن من الذي لايزال يعرف حقًا أن السلام لا يدوم إلا بسبب وجود المؤسسات التي يمكنها أن تجُبر الآخرين عليه في كل وقت؟ بالنسبة للناس الذين لا يعرفون إلا السلام والرخاء، يُعد العنف بعيد لدرجة تجعلهم يعايشونه بوصفه حدثا مُزعجا ينبغى أن يختفي من حياتهم. وليس من قبيل الصدفة أنه في نظرية يورجن هابرماس المؤثرة عن الفعل التواصلي التي تُعد أيضًا انعكاسا لاستقبال العالم القائم على ما بعد النظرية، لا وجود على الإطلاق للعنف بوصفه إمكانية كي تفوز على الآخرين. ونحن نعتقد أن عالمنا خال من العنف لأنه وديع ومسالم.وإذا حدث رغم ذلك ما لا ينبغي أن يرد في مجتمع متحضر، يجب أن تُساق أسباب ودوافع حتى لا يهتز الإيمان بالسلام الأبدي. فنحن لا نريد أن نتجرأ على اعتبار العنف بلبلة واضطرابا لذا نستعين بالمبررات التي تتوافق مع أعراف مجتمع سلمي. كم أنسنا إلى الهدوء والدماثة لدرجة أننا لم نعد نفهم الأشخاص الذين يعيشون في مواقف توتر وصراع على الإطلاق. فما أن تظهر على السطح مشاعر مثل الكرامة والغضب والحنق والاستعداد للقتال حتى يعتقد المعالجون النفسيون أن هذا الغاضب ضحية " لعقدة عصابية"، حسبما يشكو منه بيتر سلوترجيك. لأن الاعتقاد بأن العنف ما هو إلا سلوك منحرف يساعد الناس في المجتمعات السلمية كى يتصوروا واقعهم بوصفة فراغا تنتصر فيه حُجة القبضة. إذ يقول جان فيليب ريمستما: " نحن نجعل من الكارثة لغزًا حتى لا نضطر أن نثقل على حياتنا الطبيعية بالبلبلة المستدامة ".

الأسباب والمبررات

بعد الفِعلة تأتي ساعة التبرير.إنهم الجُناة أنفسهم الذين يوارون أصل العنف وفحواه، لأنهم يسوقون دوما أسبابًا لجرائمهم، تسمح لهم أن يضعوا أفعالهم ضمن منطق سلوك مجتمع مسالم. لأنه عندما تنتهي المواجهات الجسدية وحالات الاغتصاب والاضطهاد والمذابح والحروب ويُحظر العنف ثانية، لا يمكن سرد دافع إلا ما لا يفقد الجاني والضحية عقليهما، ما يجعل العنف يبدو بمثابة اضطراب عابر أو مؤقت . فالإنسان يستعين بالإشارات إلى الدوافع إلى الضروريات والحتميات بغرض تجاوز الإثارة والبلبلة التي أطلقت للعنف العنان. إذ يحيل الجناة المسألة دائما إلى حالة طوارئ إصدار الأوامر،إلى مقتضيات حتمية أو إلى التوابع القاتلة التي كانت ستطرأ لو كانوا

عارضوا أوامر القتل. بعضهم يستعين بالقيم العليا ومفاهيم الشرف، وبعضهم يصرح بأن شرور الضحايا لم تترك لهم الخيار. فهم يتعين عليهم منح ما ارتكبوه بحق ضحاياهم صبغة العقلانية أمام أنفسهم وأمام الآخرين، وإذا ما تعرضوا للمساءلة بعد انتهاء العنف، فإنهم يحاولون أن يسوقوا أسبابًا مفهومة حتى يدرك الجميع لماذا لم يتمكنوا من التصرف بشكل مغاير. وما أن ينتهي الاعتداء الوحشي ويعم السلام لا يمكن وصف العنف إلا بأنه استثناء للقاعدة. ومن يُقر أمام المحكمة بأنه أمر بقتل أناس بدافع اللامبالاة، أو لغرض ما أو انطلاقا من دوافع متدنية أو حتى فقط لرغبته في ذلك فهو يدين نفسه لا محالة. لذا لطالما قدم أعوان الديكتاتوريين والطغاة بعد انتهاء أعمال الاعتداءات الوحشية مبررات بغية إثبات أن إرشاداتهم وأوامرهم كانت تخدم أغراضا مفهومة. حتى أن مساعدي هتلر أشاروا أمام محكمة نورينبرج إلى أوامر حتمية اضطروا لتنفيذها ولم يكن لهم حيلة في ذلك. حيث صاح القائد السابق للقيادة العليا لقوات الدفاع فيلهيلم كاتيل أمام المحكمة قائلاً:" ماذا كان بإمكانى أن أفعل ؟ فالضابط لا يستطيع مناطحة قائده، الآمر الأعلى ، ومعارضته! ليس بوسعنا سوى تلقي الأوامر وطاعتها" أما أدولف أيشمان ، منظم عمليات قتل اليهود، فقد أعلن أمام قضاته في القدس بأنه لم يكن سوى ترس في محرك كبير، لا حول له ولا قوة، وليس باستطاعته مقاومة الماكينة التي أجبرته على أداء العمل الكبير المتمثل في القتل الجماعي. ورغم أنه ليس قاسياً، بل مطيع ، وأنه موظف وخادم مخلص لسادته، يفعل ما يؤمر به. وقد سقطت هانا أرندتفي فخ استراتيجية التبرير هذه، لأنها صدقت أيشمان حين قال أن تنفيذ الأوامر كان مبدأ وقاعدة لتصرفاته.

والآخرون الذين لم يتعرضوا للمساءلة قط على جرائمهم يلمحون إلى دوافع نبيلة، يلمحون إلى درء الأخطار كى يمنحوا إبادة الملايين منطقًا مفهومًا.إن الإرهاب الجماعي كان ضروريا ، على حد زعم مولوتوف بعد وفاة ستالين بعشرين عامًا لأنه كان يحمى الاتحاد السوفيتي من الأعداء الداخليين والأخطار الخارجية ومن ثم حفظه من الزوال. كما أخبر تايلور هيئة المحكمة التي انعقدت من أجله في لاهاى أنه اضطر لاستخدام العنف كي ينهي الحرب الأهلية التي مُنيت بها تلك الدولة الإفريقية . ماذا غير ذلك كان بإمكان كاتيل ومولوتوف وتايلور قوله؟إنهم قتلوا بشرًا بدافع الرغبة في ذلك؟ ماذا كان ميلى ريس ليعلن أمام الرأي لعام الألماني إذا كان قد نجا وتعرض للمساءلة عن معايشته في الحرب؟هل كان سيقول ما أسر به إلى دفتر مذكراته عام 1944؟ هى إجابة واحدة تستند إلى حتمية الحرب كانت هى الإجابة التي تمنح الأمر منطقًا حتى بعد سنوات طويلة . فالفظائع تبرر ذاتها حين يستند الجناة إلى الضرورة والحتمية .

يتصرف الناس ويتحدثون وفق المتوقع منهم في موقف ما، أوفي مساحة فعل ما.وأثناء الحرب العالمية الثانية. ظلت المخابرات الإنجليزية تتنصت على جنود وضباط ألمان بشكل منظم في معسكرات احتجاز الأسرى.ولم يتحدث أحد الأسرى تقريبا عن الحرب مثلما فعل أمام المحكمة أوفي معية أفراد أسرته. حيث أخذوا يتفاخرون بأعمالهم البطولية، وجرائم الحرب والأفعال الشنيعة لأنهم لا ينبغى أن يكتموا الأسرار عن بعضهم البعض . كل منهم كان يعرف أن إطلاق الرصاص على الفدائيين الأسرى وإغراق السفن وقتل الرهائن كلها أمور استخدمتها قوات الدفاع .ومن الواضح أنهم لم يروا سببًا لإيقافهم لما ارتكبوه. حتى من قاموا بالاغتصاب والضرب لم يتفاخروا بأفعالهم إلا عندما كانوا بين أقرانهم . وبمجرد ظهور جهة أخلاقية في الأفق وإلقاء المسئولية على هؤلاء، تُساق الأسباب التي لا تسبب البلبلة لدى مجتمع متحضر . إذ أن المتوقع من مرتكبي أعمال العنف أن يقدموا المبررات والتفسيرات حتى وإن كانوا هم أنفسهم اعترفوا بأفعالهم وأن المنطق الذي يبرون به تلك الأفعال لا يتوافق مع القواعد الأساسية ومسلمات مجتمع المواطنة. فلا أحد يحب أن يسمع أن الجناة عذبوا وقتلوا بدافع الشعور بالسعادة أو الملل، ولأنهم لم يتمكنوا من مقاومة ضغط الجماعة لذا فعلوا ما فعلوه وإن كانوا وحدهم لما فعلوا ذلك.لا وجود للجناة دون مسئولية إلا لأن المجتمع المسالم لا يستطيع احتمال الجناة المسئولين عن أفعالهم.

العنف يجب إذًاً أن يستند إلى أسباب يمكن فهمها . وكل تفسير يرجع إلىأهداف ونوايا أفضل بالنسبة لنا عن الرغبة في التدمير. وهذا هو ما يدفع الجناة والضحايا في الوقت نفسه إلى محاولة منح العنف الذي عانوا منه منطقًا حتى لا يفقدوا عقولهم. وقد كتبت الرسامة ليوبوف فاسيليفنا شابورينا ابنة مدينة لينجراد يوم 10 أكتوبر / تشرين عام 1937 في دفتر مذكراتها تقول:"أشعر بامتعاض شديد حين أسمع أحدهم يحكى بلا مبالاة ويقول، لقد أردى رميًا بالرصاص، قُتل رميًا بالرصاص، ميًا بالرصاص،رميًا بالرصاص . تجثم هذه الكلمة دائما في الهواء،تحلق في الهواء. يقولها الناس بكل هدوء، كما لو أنهم يريدون أن يقولوا: " لقد ذهب إلى المسرح؟ كيف يمكن أن نرضي بفكرة أن الناس قد أُخرجوا من بيوتهم دون أدنى سبب ثم أرداهم أحد قتلى رميًا بالرصاص؟ كيف يمكن أن نرضى بأننا بقينا طوال ليلة بأكملها نسمع أصوات إطلاق النار على أشخاص أحياء وربما أبرياء – دون أن نفقد عقولنا. بل وعدنا بعد ذلك كي نستغرق في النوم ونواصل النوم كما لو أن شيئًا لم يحدث. كيف يمكننا تجاوز ذلك؟ في وقت ما ستحين ساعة التفسير التي تمنح الفظائع والذعر منطقًا. اصطحبت سيدة روسية يهودية من مينسك تم ترحيلها

في صيف عام 1941 إلى جيتو شأنها شأن آلاف اليهود الآخرين، اصطحبت معها مجموعة فراشاتها في رحلتها الأخيرة. الطبيعة في حالة الطوارئ والاستثناء. وقد قالت لاحقًا عن تلك الفظائع التي عايشتها." بحث الناس عن منطق لما حدث. أى تفسير.فالبشر يرغبون حتى في فهم الجحيم"ومن يتحمل الألم ويعايش موت الأصدقاء والأقارب لن يستطيع تحمل الفكرة التي مؤداها أن كل شيء حدث من قبيل المصادفة .

من يخرق أعراف التبرير يصبح وحشا في عين المُدعي . فقد لعب جوزيف كرامر أمام المحكمة دور متلقي الأوامر الوقح، وقد ساق أسبابًا للتبرير لم يكن لها أي معنى في أفق المدعين والقضاة . حيث زعم أن الأمر لم يشكل له فارقا بشأن من يرسله إلى الحبس سواء كان شيوعيا أو يهوديا فهو لم يؤدى سوى واجبه باحتجاز المساجين. أى أن أيدولوجية النازية لم تهمه على الإطلاق لأنه لم ينضم على حد قوله إلى قوات الحماية إلا لأنه كان يبحث عن عمل.القتل بدافع العرفان نظير الدخل والترقي الوظيفي– هذا هو الدافع الذي حصر فيه كرامر مبرراته.وقد تحدث كرامر عن قتل النساء في غرف الغاز كما لو كان يتعين عليه حل مسألة تقنية معقدة. حين قال أنه ما أن انساب الغاز إلى داخل الغرفة حتى أخذت النساء في الصراخ ." ولم يخبر المحكمة بأكثر من ذلك. إلا أنه عندما تم نقله عام 1944 مرة أخرى إلى معسكر أوشفيتس اعترض على تنفيذ الأمر. وقد سأله القاضى لماذا لم يرغب في العودة إلى مقر عمله القديم وكان يتوقع بالطبع أن يقول كرامر أنه لم يعد يرغب في مواجهة هذه الفظائع. وبدلاً من ذلك أجاب قائلاً :"لقد ضايقتنى الأوضاع البولندية هناك! لقد كنت أفتقد النظام! فهو بكل بساطة لم يفهم أن استراتيجية الدفاع التي تستند إلى أخلاقيات النازيه لا تأثير لها أما محكمة المنتصرين.

تعرض كرامر للمساءلة نظير موت عشرات الآلاف من البشر، ورغم ذلك لم يعتبر نفسه قاتلاً، بل رأى نفسه حارسا للنظام نزيها لا يقبل الرشوة لا ينبغى لومه على أى شيء. حتى أنه في زنزاته اعتقد أن المُدعين أنفسهم سوف يدركون خطأهم وأنهم في النهاية يجب أن يفهموا أنه لا ينبغى اتهامه بشئ . حيث كتب لزوجته يقول أنه يتمنى أن ينتهى "وقت العناء" وأن يعود إلى بيته سريعاً.لم تجد مبررات كرامر معنى ومنطقا إلا في الإطار المرجعي لأخلاقيات النازية وبعد انتهاء عصر الديكتاتورية ظل خافيًا عليه ماكان يتعين عليه قوله للقاضي كى يبرئ ساحته.كان بإمكانه الاستناد إلى طفولته الصعبة وإحالة ما حدث إلى البطالة والفقر، أو حتى بوصفه محبا للمناصب أو متعصبا أو شخصا معرضا للغواية أو غير متقبل للموعظة ربما كان سيحظى بتفهم القاضي. وبدلاً من ذلك تحدث الرجل عن العنف كما لو أنه من البديهيات التي لا تحتاج إلى تفسير . وقد بدا للقاضي أن المتهم ليس لديه ما يقوله كي يبرئ ساحته . لابد وأن يكون كرامر وحشًا إذ

لم يجد الأشخاص المعاصرون له أى تفسير آخر. حتى أن الصحف البريطانية أطلقت عليه لقب " وحش بيلزن " إذ لا يستطيع أن يرتكب الفظائع دون سبب إلإ من يعاني من اعوجاج نفسي. ولم يكن هناك سبيل آخر لفهم الرسالة التي انتشرت بين الرأي العام بعد الحرب بشأن آمر معسكر الاعتقال.

أيا كان العنف فهو دائما ما يُطرح بوصفه شططا وانحرافا وحيدا عن الطريق القويم أو حتى باعتباره مرضا قد يُعالج ذات يوم. فالتبرير الذي يصدر عن المعالجين النفسيين يفيد بأنه عند تشخيص الأمراض يمكن علاجها: عن طريق التحضر، وعن طريق التسامح أو العدالة الاجتماعية . وكل الشروح التي أطلقها علماء الحضارة والاجتماع بشأن اندلاع العنف ما هي إلا تنويعات لهذه الدوافع. وتأثيرها ينتج عن الإيمان بإمكانية التحكم في الظروف والسلطة عليها.لذا تُعد تفسيرات الجناة والضحايا ومبرراتهم ناصحين سيئين اذا كنا نريد أن نفهم ما يفعله العنف بالبشر وما يفعله البشر بالعنف،لأن من يتحدث عن الأسباب والعلل فقط لن يعرف سوى القليل عن ديناميكية علاقات العنف ومنطقها الخاص .